Lise Manniche, The Tombs of the Nobles at Luxor.The American University in Cairo Press, 1988.

« مقابر النبلاء فى الأقصر » تأليف ل . ما نيشى ، مطبوعات الجامعة الأمريكية فى القاهرة ، ١٩٨٨ .

عرض وتحليـل
دكتور علاء الدين عبد المحسن شاهين
كلية الآثار ـ جامعة القاهرة

ينقسم الكتاب إلى تعريف وشكر ، وسبعة فصول (ص ١ – ١٣١) ، مرفق بنهايتها قائمة بمقابر غرب طيبة (الأقصر) وأصحابها من النبلاء « الأشراف » ص (١٣٢ – ١٤٦) وفهرس عام (١٤٧ – ١٥٠) .

ولقد سبق نشر هذا الكتاب أولا تحت اسم :

City of the Dead : Thebes in Egypt

بواسطة مطبوعات المتحف البريطانى عام ١٩٨٧ .

ويتناول المؤلف فى الفصل الأول « غرب طيبة : مدينة الأموات » (ص ١ – ١٦) تعريف بالمدينة ومركزها الدينى ، وخاصة فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق . م) وكذلك المدينة الحالية بملامحها المعمارية الحديثة ، واختلافها فى جزئها الشرقى من نهر النيل عن تلك الواقعة على الجزء الغربى من نهر النيل بتقسيماتها المكانية المختلفة : « شيخ عبد القرنة ، دراع أبو النجا ، الخوخة ، قرنة مرعى ، دير المدينة ، وادى الملوك ووادى الملكات » .

وقد أشار المؤلف إلى تضمن المقابر العديد من المناظر التى تعكس فكرة المصرى القديم فى الخلود (ص ٧ – ٨) . ولعل ماتركه صاحب مقبرة (رقم ١١٠) فى غرب طيبة يوضح لنا مايتمنى أن يقع له فى عالمه الآخر ؛ وهو خير وصف لذلك التفكير المصرى القديم .

ويتناول المؤلف بالمثل مراحل قطع المقبرة فى الصخر ، وكيفية تنفيذها ، ومن ثم إعداد أسطح جدرانها للمناظر وفقًا لنوعيه الحجر . وأنه فيما يبدو كان هناك تتابع للعمل ما بين الانتهاء من قطع المقبرة فى الصخر ، إلى تمهيد أسطح الجدران ، إلى قيام الرسام بوضع خطوطه الأولية للرسومات (ص ١٤) . ويثير المؤلف نقطة جديرة بالملاحظة ، وهى احتمالية أن يكون هناك « مصدر واحد » أساسٌ نقلت عنه المناظر الزخرفية المتعددة فى مقابر نبلاء طيبة ، مشيرًا إلى مثالين من مقبرة ونسو (Wensu) فى دراع أبو النجا ، ومقبرة باحرى (Paheri) فى منطقة الكاب ، فهذين المثالين تطابقت مناظرهما برغم بُعْد المكان الجغرافي لكليهما ، واختلاف نوعيه التنفيذ : رسم (Painting) فى مقبرة « ونسو » ، ونحت (Curving) فى مقبرة « باحرى » (ص ١٤) .

وأشار المؤلف (ص ١٦) إلى ظاهرة خاصة بجبانة غرب طيبة الممثلة فى وجود ما يسمى « المخاريط الجنازية » (Funerary Cones) والتى تشتمل قاعدتها الدائرية على اسم وألقاب المتوفى ، والتى عثر عليها داخل مقابر غرب طيبة ، باستثناء وحيد فى منطقه دير المدينه ، ويتراوح وجودها الزمنى مابين الأسرة الحادية عشرة ، وحتى العصر المتأخر (٢٠٠٠ - ٦٠٠ ق . م) ، والتى يتميز ما ينتمى منها إلى الدولة الحديثة عن غيره بوضوح شديد .

أما الفصل الثانى « البداية » (ص ١٧ - ٢٨) فقد تناول فيه المؤلف بدايات مدينة طيبة فيما قبل عصر مجدها المزدهر خلال الدولة الحديثة ، وذلك منذ بدايات كونها مدينة إقليمية بعيدة عن العاصمة السياسية للدولة آن ذاك فى منف (ميت رهينة - البدرشين الحالية) وكانت طيبة محددة فى جغرافيتها آن ذاك على الضفة الشرقية لنهر النيل ، فى المنطقة المقام بها ، ويشرف عليها حاليًا معبد الكرنك ، وكان سكانها يدفنون فى جبانة « الطارف » الواقعة مباشرة على الغرب من نهر النيل ، وكان نمط المقابر السائد آن ذاك هو المعروف باسم « المصطبة » مشيدة بالطوب اللبن . وقد تداعت تلك المصاطب ولم يتبق من آثارها إلا القليل . ولم يعثر على أى مقابر لحكام مدينة طيبة من الأسرة الخامسة ، بالرغم من وجود إشارات إلى وجود مقابر لهم آن ذاك بالمكان .

ويبدو أن مركز الجبانة فى الأسرة السادسة قد انتقل إلى الخوخة ، حيث عثر

على خمس مقابر ممثلة لتلك الفترة ، وشغل أصحابها مراكز إدارية هامة . ويشير المؤلف إلى وجود نمطين هامين من المناظر المدونة فى تلك المقابر ، والتى سيتكرر وجودهما فى مرحلة تالية ، هما : الرحلة الرمزية إلى أبيدوس (منظر الحج الرمزى) ومناظر الصيد والقنص فى المستنقعات . إضافة إلى ذلك هناك منظر يظهر فى ماتلى خلال الدولة الحديثة ، بكثرة ، وهو منظر تصوير حجرة النوم (ص ١٨) .

ومع حوالى عام ٢١٣٤ ق.م تغير الموقف مع ظهور قوة العائلة الطيبية ، والتى حمل عديد من أفرادها اسم « انتف » (فرع الأناتفة) ، وتلقب أحدهم بلقب ملك مصر العليا والسفلى ، وجلس على العرش لمدة خمسين عامًا ، وشيدوا مقابر لهم فى جبانة الطارف ، والتى شيد سكان الأسرة الرابعة فيها من قبل مقابر لهم .

وكانت مقابر ملوك تلك الأسرة النواة لجبانة تجمع حولها مقابر الأتباع ، وذلك فى صفوف متوازية . ثم حل محل فرع تلك الأسرة من تسموا « بالمناتحة » ، وقام « منتوحتب الثانى » ببناء آثاره الجنازية فى منطقة الدير البحرى . وتجمع أيضًا حول هذا البناء الملكى مقابر العديد من البلاط الملكى وكبار الموظفين فى الصخور حول المعبد ، منهم محافظو الإقليم ، والوزير ، وأمين المال ، وحاملو الأختام .

ويشير المؤلف إلى بعض مقابر الدولة الوسطى ، ومن أهمها مقبرة الوزير « داجى » (Dagi) رقم ١٠٣ ، والتى أُعيد استخدامها فيما بعد كنيسة ، ومقبره أمين المال « خيتى » (Kheti) رقم ٤٠٥ ، ومقبره الوزير آبى (Ipi) رقم ٣١٥ ، وأمين المال « مكت رع » (Meketrec) رقم ٢٨٠ والتى عُثر بها على ألف ومائتى موديل (نموذج) للأدوات والأسلحة . وبرغم تعرض تلك المقبرة للنهب فإنه قد نجا من السرقة النماذج التى عثر عليها لمقاطعة مكت رع : فيلاته ، اصطبل حيواناته ، المجزر (السلخانة) المخازن ، مصانع النسيج ، المطبخ ، مراكب الصيد ، والاتباع ، والتى تعرض حاليًا بالدور الأرضى من المتحف المصرى . ومع انتقال العاصمة السياسية لمصر خلال الأسرة الثانية عشرة إلى « اللشت » نتوقع أن الجبانة كانت هناك . ولكن يجدر ملاحظة أن « أنتف أقر » الوزير ومحافظ طيبه قام باختيار مكان دفنه ليس فى العاصمة « اللشت » ولكن بالقرب من موقع ممارسته لوظيفته بالمكان (مقبره رقم ٦٠) ، والتى تعتبر مقبرته بمثابة همزة الوصل بين نمط مقابر الدولة القديمة ، وتلك من الدولة الحديثة بالمكان – ونال مناظرها الكثير من التدمير ، وإنْ ظلت إلهامًا فى كثير من جوانبها لمقابر الأسرة الثامنة عشرة (ص ٢٤ – ٢٦) .

ومع انتهاء الدولة الوسطى بدأت مرحلة تاريخية جديدة عُرفت باسم « فترة الانتقال الثانى » سقطت خلالها مصر فريسة للحكم الأجنبى لما يزيد على مائة عام (وجود الهكسوس فى مصر) (ص ٢٧) . ولم يعثر على مقابر ملونة فى تلك الفترة التاريخية ، وإنْ كانت هناك دفنات على منحدرات تلال دراع أبو النجا قدمت لنا أشياء هامة صغيرة ، مثل أدوات الزينة ، والأثاث الجنازى ، والتماثيل الصغيرة ، والأدوات الموسيقية ، بالإضافة إلى التوابيت التى أخذت شكلاً بشريًا ، والتى كان يدفن فيها أهل طيبة .

وتناول المؤلف فى الفصل الثالث « الأسرة الثامنة عشرة ١٥٧٥ – ١٣٣٥ ق.م » (ص ٢٩ – ٦٣) النمط المعمارى السائد لمقابر تلك الفترة فى طيبة ، والمعروف بنمط (T-Shaped Tombs) موضحًا أهمية مقابر طيبة بمناظرها الملونة ، على العكس مما كان سائدًا فى جبانات أخرى ، مع بعض الاستثناء . وتعكس المناظر وبصفة خاصة « مناظر الحياة اليومية » أهمية خاصة . وكانت شخصية الملك – برغم ندرة تمثيلها فى مقابر الأفراد – المحور الأساسى ، ونقطه ارتكاز تدور حولها حياة صاحب المقبرة (ص ٣١) فى ارتباط مع الوظائف التى شغلها الوزير ، الكاهن الأعلى لامون ، قائد الجيش ... إلخ . وقد عكست المناظر ملامح المهام لشاغل الوظيفة ، على سبيل المثال للوزير ، وخاصه فيما ارتبط مع مناظر استقبال الجزية من الأجانب ، ونفس الشىء مع شاغلى الوظائف الإدارية العليا الأخرى .

وقد تناول المؤلف مناظر « القنص والصيد » ورمزيتها فى مفهوم المصريين فى « إعادة البعث والخلق » وإشارته إلى رسم الإوزة المصاحب لمناظر الصيد فى الأدغال ، باعتباره رمزًا جنسيًا يدل على مفهوم الارتباط بين الرجل والمرأة . وأشار كذلك إلى منظر رمى السهام ضد فرس النهر ، ومناظر الصيد فى الصحراء ومدلولاته الرمزية ، وانتصار صاحب المقبرة على الأعداء المقيمين على رمالها الحمراء ، « ست » إله الشر فى المفهوم العقائدى المصرى القديم ، مما يمنح صاحب المقبرة السيطرة والراحة فى عالم الآخرة (ص ٣٨) . إضافة إلى ذلك هناك مناظر الزراعة : جنى الكروم ، رحلة الحج إلى أبيدوس ، طقس فتح الفم ، مناظر الولائم الجنازية على جدران مقابر النبلاء فى جبانة غرب طيبة .

ويتناول المؤلف مقابر « دير المدينة » التى وضع أساسها الثابت من عهد تحوتمس

الرابع ، ووصلت شأوها فى عهد الرعامسة . وقد تم التعرف على ست مقابر مزخرفة من الأسرة الثامنة عشرة ، أهمها مقبرة المعمارى « خع » رقم ٨ ، والتى عثر على دفنتها سليمة : الأثاث الجنازى ، الصناديق ، الملابس ، الشعر المستعار (الباروكات) العطور ، الأعشاب والبخور .

كما عُثر على ست مقابر من الأسرة الثامنة عشرة فى جبانة « قرنة مرعى » ، ومن أهمها مقبرة « نائب الملك على كوش » حوى رقم (٤٠) من عهد توت عنخ آمون (ص ٤٧) . ويشير المؤلف كذلك إلى جبانة شيخ عبد القرنة ، والتى يتواجد بها ما يزيد على نصف مقابر الجبانة من الأسرة ، (١١٠ مقبرة من الأسرة الـ ١٨) ومن أشهرها مقبرة « نخت » (Nakht) رقم ٥٢ « ومنتا » (Menna) رقم ٦٩ محط أنظار الزائرين إلى المكان . إضافة إلى ذلك يجدر الإشارة إلى مقابر النبلاء : الكاتب وسرحات (Userhat) رقم ٥٦ ، والمشرف على الغلال « خع – ام – حات » و (khaemhet) رقم ٥٧ ، برغم عدم وجود مناظر ملونة بها ، ومقبره الوزير رخميرع رقم ١٠٠ ، وسن نفر رقم ٩٦ ، وأمنمحات رقم ٨٥ ، ومقبرة الوزير « رغموزا » رقم ٥٥ من عهد أمنحتب الثالث وأمنحتب الرابع (إخناتون) والتى عكست ملامح النقلة الفنية إلى أسلوب فن العمارنة . وقد أشار المؤلف مرة ثانية (ص ٥٠) إلى التشابه والتطابق فى نمطية المناظر فى مقابر « شيخ عبد القرنة » مرجحًا وجود كتاب نموجى تنقل عنه المناظر ، وإن ظل هناك اختلافات فى التطبيق للنموذج من مقرة عن غيرها عكست شخصية ومهارة كل فنان عن غيره .

ويشير المؤلف كذلك إلى مقابر « العساسيف » وإلى مقبرتى الدولة الحديثة ، وخاصة مقبرة « خرواف » (Kharuef) رقم ١٩٢ . كما يوجد حوالى ٣٢ مقبرة من الأسرة الـ ١٨ فى جبانة الخوخة ، ومن بينها مقبرة « أنينى » رقم ١٨١ ، ومقبرة « بوى – ام – رع » الكاهن الثانى لأمون ، رقم ٣٩ .

كما أشار إلى مقابر دراع أبو النجا ، والتى يوجد بها حوالى ٤٨ مقبرة ملونة من الأسرة الثامنة عشرة . وبالرغم من ثورة العمارنة فإن طيبة لم تتأثر كثيرًا ، حيث أنه أُعيد استخدام جبانتها للدفن منذ عهد توت عنخ أمون ، وماتلى .

وفى الفصل الرابع « مقابر الرعامسة » (١٣٠٨ – ١٠٨٧ ق.م) (ص ٦٤ – ٨٣) يوضح المؤلف الاختلاف البين بين مقابر الرعامسة (الأسرتين ١٩ – ٢٠)

من مقابر التحامسة (الأسرة الـ ١٨) ، حيث اختفت مناظر الحياة اليومية بما كانت تمثل من معانى « إعادة الميلاد والبعث » (ص ٦٠) . ولم تعد هناك مناظر الصيد فى الصحراء بما كانت تعكس من رمزية الصراع ضد الشر . وأيضًا اختفت مناظر الولائم وما كان يصاحبها من خمور ، وبيرة ، وموسيقى ، وإن ظل ركن بحجم قليل يمثل مناظر للزراعة . وغلب على المناظر بمقابر الرعامسة تلك المشتقة من الكتب الدينية ، وخاصة كتاب « ماهو موجود من عالم الآخرة « The Book of the Underworld وكتاب البوابات (The Book of Gates) . وكتاب الموتى (The Book of the Dead) وما تتناوله من مناظر من عالم الآخرة ، والمصاعب من الأهوال والمخلوقات التى سيواجهها المتوفى هناك . وبالمثل مناظر وزن القلب ، ومنظر محاكمة المتوفى أمام ملك الموتى الإله أوزيريس .

ولقد أصبح منظر الإلهة « الشجرة المعطية الحياة والتغذية فى عالم الآخرة » – الذى كان موجودًا أحيانًا من مناظر مقابر الأسرة الـ ١٨ – سائدًا فى مناظر مقابر الرعامسة . كما يجدر ملاحظة اختفاء مناظر تقديم الجزية من الأجانب ، الحرف والصناعات ، النشاطات العسكرية ، وكذلك الدور الهام للملك فى مقابر الأفراد من الأسرة الـ ١٨ اختفى تمامًا فى المقابر من عصر الرعامسة ، وإن وجد فإن الملك هنا يظهر فى شكل الإله المعبود (امنحتب الأول على سبيل المثال) .

ويوجد حوالى ١٩٤ مقبرة فى الجبانة من عصر الرعامسة ، ٤٧ منهم فى منطقة دير المدينة ، و٥٥ مقبرة فى دراع أبو النجا ، و٣٢ مقبرة فى الخوخة من الأسرة الـ ١٨ فى مقابل ٢٩ مقبرة من عصر الرعامسة ، و١٢ مقبرة من عصر الرعامسة فى جبانة « قرنة مرعى » . وتعتبر مقبرة « نفر رنبت » (Neferronpet) كاتب الخزينة فى عهد رمسيس الثانى فى الخوخة رقم ١٧٨ أكمل مثال لمقابر عصر الرعامسة (ص ٧١) .

وفى الفصل الخامس « العصر المتأخر (١٠٨٧ – ٢٥٢ ق.م) والخاتمة » (ص ٨٤ – ٩٢) يوضح المؤلف قلة المقابر المؤرخة من فترة ما بعد الرعامسة وحتى غزو الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية لمصر . ويرجع وجود ما يسمى « المخاريط الجنازية » وجود مقبرتين مزخرفتين هامتين من الأسرة الثانية والعشرين بالجبانة ، ترجع إحداهما إلى الكاهن الثانى لامون ، والأخرى إلى كاهن آمون ومونتو ، وكاتب الملك .

وخلال الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين استرجعت جبانة

« العساسيف » أهميتها ، ربما فى ارتباط مع تلك الصحوة لمكانة الإله آمون مع حضور الأسرة الكوشية إلى مصر ، وما كانت تقدمه من ولاء دينى لهذا الإله . ولعل أهم مقابر تلك المرحلة هى تلك الخاصة بـ « مونتو – ام – حات » ، الكاهن الرابع لأمون ، والتى تعكس مناظرها خليطًا من المناظر المنقولة عن مقابر الدولة الحديثة (ص ٨٧) ، كما تعكس جدران مقبرة « عنخ حور » (Ankhhor) رقم ٤١٤ منظرًا مميزًا بعمليه قطف « عسل النحل » .

ولقد أوضح المؤلف حقيقة أنه ليس بالضرورة أنَّ كل كبار الموظفين الذين خدموا فى العصر المتأخر قد دفنوا فى العساسيف (ص ٨٩) . ويشير المؤلف كذلك إلى استخدام المكان – وإن كان بندرة – للدفن حتى فى العصر الرومانى . وتعكس مقبرة المدعو « مونتو – ام – ساف » (Mentvemsaf) الذى توفى فى عهد أوغسطس (Augustus) نموذجًا جيدًا لذلك ، فى جبانة شيخ عبد القرنة .

وبانتهاء دورة الزمان لطيبة الفرعونية ، ومع تداعيات دخول المسيحية إلى مصر ، استخدم العديد من المقابر عقارًا للسكنى والإقامة ، وتحول بعضها إلى ما يوازى « الدير » حاليًا .

وفى الفصل السادس « إعادة الاكتشاف » (ص ٩٣ – ١١٤) يغوص المؤلف فى رحلة سياحية للمكان متناولاً ما ورد فى كتب الرحالة السابقين لطيبة وجباناتها ، بدءًا من القديس الفرنسى C. Sicard (١٦٧٧ – ١٧٢٦) ، وما دَوَّنه الرحالة القبطان البحرى Norden (١٧٠٨ – ١٧٤٢) عن المكان ، وأيضًا الرحالة الإسكتلندى Bruce (١٧٣٠ – ١٧٩٤) وآخرون ، وما قام به محمد على بإصداره فرمانات سمح بها للأجانب بالعمل الأثرى بمصر آن ذاك ، وكذلك ما تعرض له المكان على أيدى الباحثين عن الآثار (النهّابين والنبّاشين) وأخيرًا ما قام به « ولكنسون » بصفه خاصة من أعمال بالمكان .

وينتهى الكتاب فى فصله الأخير « الأيام الحالية » (ص ١١٥ – ١٣٠) بالإشارة إلى الدور الهام الذى لعبته حمله نابليون بونابرت ضد مصر ، وما ترتب عليها من نتائج فى نشأة ما يسمى « مصلحة الآثار المصرية » عام ١٨٥٨ ، وما قام به العالم الفرنسى « أوجست ماريت » من دور هام ضمن أعمال تلك المصلحة ، ثم ما قام به بعد ذلك عديد من العلماء بأعمال البحث والحفر بالمكان ، ومن ثم الكشف عن العديد من المقابر بالمكان ، ثم النشر العلمى لها بعد ذلك .

ويشير كذلك إلى ما قام به عديد من العلماء من جهود علمية بالمكان ، ومنهم لبسيوس كارتر ، سيكار بللى ، وخاصة فى دير المدينة ، وويجال ، امرى ، دى . جاريس ، ونلوك بروترموس ، والمعهد الفرنسى فى دير المدينة ، وما قام به د. أحمد فخرى ، والذى عكس تزايدًا أكاديميًا وبحثًا علميًا منظمًا بالمكان أبانَ عن العديد من ملامحه الحضارية .

كما أشار المؤلف إلى مشكلة التواجد البشرى الحالى لسكان المكان فى داخل حرم المنطقة الأثرية والجبانة ، بما يمثل ذلك من خطورة على المكان أثريًا ، ومطالبًا برحيل السكان عن المكان ، مشيرًا إلى تجربة المهندس المعمارى المصرى حسن فتحى ، وما قام به من تشييد لقرية « القرنة » النموذجية ، وإن ظلت خالية من شاغليها للآن .

والكتاب برغم صغر حجمه فإنه يحتوى على مادة علمية غزيرة غطت جوانب متنوعة للمكان جغرافيًا ، وفنيًا ، وأثريًا ، وعقائديًا .. وهذه المادة مرتبة ترتيبًا زمنيًا جيدًا منذ بدء المكان وحتى نهاية العصر الفرعونى .

واكتملت منفعة الكتاب بما قام به مؤلفه فى فصليه الأخيرين بإضافة مسح أثرى شامل للإشارات المتناولة لجبانة طيبة منذ القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر . كما يتميز الكتاب بتضمنه لبعض المناظر الأقل شهرة وتناولاً فى المصادر الأخرى .

ولكن قد يُؤخذ على الكتاب تَجَاهُلُ مؤلفه (ص ١٩) – برغم تناوله للعديد من التحليلات – مشكلة تفسير الأثر الجنازى ، الذى تركه لنا بنى جت – ع منتوحتب فى الدير البحرى ، سواء أكان قبرًا رمزيًا ، أم هرمًا ، أم معبدًا جنازيًا ، أم خليطًا من ذلك . كما أنه ، وبرغم إضافة الكاتب لصفحة اشتملت على قائمة مراجع بها عشر مراجع عن طيبة بصفة عامة وتقاريرها بصفه خاصة ، ثم عن دير المدينة ، فإنه يُؤْخَذ عليه عدم وجود هوامش (ملحوظات) للمادة العملية فى متن الكتاب ، سواء أسفل كل صفحة أو فى نهاية كل فصل من فصول الكتاب ، يرجع إليها الباحث لمزيد من الاطلاع والمعرفة عن المعلومات الواردة به ، وخاصة عند تناوله للتنوع فى المناظر (تطابق واختلاف) بين مقابر عصر التحامسة وعصر الرعامسة .

* * *